# بناء القصيدة العربية في العصر الحديث
# (عبد الوهاب البياتي نموذجا)

د . علي اللافي جولق ـ كلية التربية العجيلات
جامعة الزاوية

---

## المقـــــدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد ...

تعتبر حركة التجديد في القصيدة العربية حركة تاريخية نابعة من ظروف اجتماعية وسياسية، وهي تعبر عن وجدان الإنسان العربي المعاصر، حيث إنه منذ أن ظهرت القصيدة في أربعينيات هذا القرن والحلم يراود الشاعر العربي بإخراج القصيدة من حالة التمزق والتشتت إلى حالة القصيدة ، والبناء المتماسك الرصين، وقد استطاع عدد قليل من شعرائنا المبدعين تحقيق بعض هذه الأحلام .

وقد اخترت موضوع " بناء القصيدة العربية في العصر الحديث " من بين مجموعة من المواضيع ليكون عنوانا لبحثي هذا، ولقد شدني هذا الموضوع لما فيه من فقرات ونقاط استفهام جذبتني، وصممتُ في قرارة نفسي أن أبحث لها عن إجابة ترضي فضولي.

تناولت تطور أسلوب القصيدة ومعانيها والعلاقة بين اللفظ والمعنى .

و تناولت بالشرح عنصر الوحدة في العمل الأدبي، و أيضا حركة التجديد التي مرت بها القصيدة العربية وخاصة عند الشاعر الكبير عبد الوهاب البياتي ثم كانت ، ثم الخاتمة، والهوامش .

## أولا- تطور أسلوب القصيدة العربية في العصر الحديث :

من حيث شكل الأسلوب في القصيدة العربية، فقد جرى الشعراء في أول الأمر مقلدين للقصيدة العربية ومحافظين على أوزانها الشعرية التي ورثناها عن العرب، ولكنهم فإن تفننوا في أنواع الموشحات، وخرجوا بها عن أصولها المتعارف عليها، حتى صاروا بها مسدسات ومسبعات، ومثمنات، بدون أن يلتفتوا إلى عدد الأقفال والأبيات فيها حتى وإن راعوا نمطها في الوزن والقافية .

وعندما زاد تأثرهم بالأدب العربي في القرن العشرين، أخذوا ينظمون القصيدة في شكل مقطعات تختلف أحيانا في عدد أبياتها، وتتفق أحيانا أخرى، ويوجد لكل مقطّعة قافية تستقل بها عن غيرها .(1)

ومن الشعراء من جرى على أسلوب الشعر الغربي في تثنية القوافي وتقطيعها، وأثر البحور الخفيفة الرشيقة، ومنهم من أهمل القوافي والأوزان، أو حافظ على القوافي وأهمل الأوزان، وسمي هذا بالشعر المنثور، أما الشعر المرسل، وهو: الشعر الموزون غير المقفى، فمن أمثلته بعض ما ترجمه محمد فريد أبو حديد من روايات شكسبير،وهي مناجاة روميو لنفسه حين رأى جـوليت في حفل راقص، ولأول مرة .

**نُـورُهَا البـَاهِر فِـي لَمعَتِهِ**

**جَعَــلَ الأنــوَار تـَزدَاد سَنَــاً**

**وَبَدَت في صَفحَةِ اللَّيل كَمَا**

**يَلمَعُ الجَوهَرُ فِـي قَـرطِ الزُنُــوج**

**إنَ هَـذَا الحُسـنَ لأَحِبّــهُ**

**حُسنَ أهل الأرض حَاشَا أن يَكونَ(2)**

وقد جدّ في البلاد العربية منذ سنوات نزعة إلى التحرر من القافية، وجعل التفعيلة وحدة موسيقية في القصيدة لا البحر، وقد سمي هذا النوع بالشعر الحر، وهو لا يزال في سبيل التجربة، ولم يأتِ بعد الشاعر الفحل الذي يستهوي الأسماع بسحر نغمه، والألباب بعذب شعره، والنفوس بقوة بيانه ليدعم هذا الشعر، ويعطيه مكانته في الأدب.

بل إن معظم ما ينظم به هو النوع القصصي البسيط الذي يعبر عن تجارب وأمور مألوفة.

أما البيت عند الشعراء المجددين، فلم يعد وحدة في القصيدة بل إن القصيدة أصبحت مرتبطة بعضها ببعض في شكل بناء محكم، ولجئوا إلى القصة الشعرية، وقد عُرفَ هذا النوع عند العرب قديما في شعرهم، ومن مثله قصيدة الحطيئة " وطاوى ثلاث "، وقصيدة عمر ابن أبي ربيعة "أمن آل نعم" .

**ثانيا- تطور معاني القصيدة العربية :**

لا شك في أن المعاني تأتي من كثرة إطلاع الشاعر، والتزود من تجارب الآخرين، وصدق النظرة في الحياة، وأيضا تأتي مبتكرة من نتاج الفكر الخالص عند العباقرة، وليس من الضروري أن يأتي الشاعر بحقائق جديدة ومبتكرة، بل إن في استطاعته أن يجعل من الحقائق القديمة المألوفة التي تتخطّاها الأذهان، ولا نتفطن لها لتفاهتها وبساطتها، أن يجعل منها معاني قوية متألقة، تهدف فيها الحياة من جديد، وذلك نتيجة لقدرته و براعته في انتقاء الألفاظ المعبرة الصادقة؛ ذلك لأن العناية بالمعاني وتنويعها، وتجددها تجعل الشعر ذا فائدة كبيرة بالنسبة للشاعر والناقد والقارئ، وغيرهم (3).

غير أن الإسراف في ذلك يفسد الشعر لأنه يُحمّله ما لا يحتمله، ويجعله أقرب إلى فنون العلوم؛ لكثرة ما يحتويه من حقائق جافة، ويبعد به عن الشعر الذي يهزُّ

العاطفة الإنسانية، ويلهب المشاعر والأحاسيس، والذي يحتاج المرء فيه وفي فهمه إلى إمعان النظر وكد الذهن والتعمق في معانيه أكثر فأكثر.

والشعر إذا زاد فيه الفكر والعلم إلى حد كبير فَإنه يفقد تلك الميزة التي تفصل بينه وبين النثر؛ لأن الشعر لغة الانفعال' وإن الشعر في الأصل معانٍ يريدُها الشاعر، وهذه المعاني ليست إلا أفكاراً عامة.(4)

وإنما تصير هذه المعاني شعراً حين يعرضها الشاعر في معرض من فنه وخياله وأدائه، فيجدد هذه المعاني تجديدا ينقلها من المعرفة إلى التأثر بالمعرفة، ومن إدراك المعنى إلى التأثر بالمعنى و من فهم الحقيقة إلى الاهتداء للحقيقة، فالشعور والتأثير والاهتداء هي أصل الشعر، ولا يكون شعر يخلو منها ومن آثارها إلا كلاما كسائر الكلام ليس له إلا فضل الوزن والقافية .

وخيرُ الشعر ما سلمت فيه الفكرة، ووضحت معانيها، دون أن يفقد الشعر مقوماته الأصلية من عاطفة قوية، وخيال رائق، وصورة شعرية واضحة، وموسيقى مرهفة عذبة

وإن من الأمور المهمة التي يراعيها شعراء العصر الحديث هي تسلسل المعاني، وارتباطها ببعضها ارتباطا قويا، وعدم تنافرها، حيث إن القصيدة أصبحت وحدة، وبناء متماسكا، ولم يعد البيت عند شعراء هذا العصر هو الوحدة في القصيدة كما كانت الحال عند العرب .

والمعاني في حد ذاتها تتفاوت من حيث ابتذالها، وشيوع استعمالها، أو من حيث إنها تقليد ونقل عن معانٍ سبقتها، ومن حيث إنها جديدة الابتكار، فالمعاني المبتذلة هي المعاني المألوفة، والمتداولة على الألسنة بين الخاصة والعامة، كقول الشاعرالبياتي مثلا، " والأرض فيها الماء والأشجار ". (5)

فهذه من الأمور البديهية المتعارف عليها، وأما التقليد فبابه واسع، وقد أُلفتْ فيه العديد من الكتب القديمة أما بالنسبة للابتكار في المعاني وإظهار الجديد فيها فهو نادر.

## ثالثا- العلاقة بين اللفظ والمعنى :

قد يقف النقد المعاصر أحيانا موقف المخالفة الصريحة والمباينة التامة لرأي ابن طباطبا، حيث إنه يصور العلاقة بين اللفظ والمعنى في القصيدة العربية يصورها على نحو العلاقة بين الروح والجسد، وهو ينسب هذا الرأي لبعض الحكماء في القول: " الكلام جسد وروح، فجسده النطق وروحه معناه (6) .

وهذا التصور يجعل الصلة بين اللفظ والمعنى عند ابن طباطبا أوضح مما رسمه أبن قتيبة، على أنه ربما لم يقتصر في العلاقة بين اللفظ والمعنى على الوجوه الأربعة لأنه لا يريد أن يلتزم بقسمة منطقية معينة، فهناك أشعار مستوفاة المعاني، سلسلة الألفاظ سهلة، وأشعار غثة الألفاظ باردة المعنى، وأيضا توجد أشعار حسنة الألفاظ واهية تحصيلا ومعنى، وأشعار صحيحة المعنى، رثة الصياغة

**رابعا- الوحدة في العمل الأدبي :**

كان البحث عن الوحدة في العمل الأدبي من جملة الموضوعات التي أثارها النقد المعاصر، حيث ذهب البعض من المعاصرين إلى القول:بأن مقياس الوحدة في العمل الأدبي لم يعرفه النقاد العرب في نقدهم قبل عصر النهضة، عندما وصفوا الأدب العربي في عصور ما قبل عصر النهضة بفقدان هذا الأساس، و وصفوا القصيدة العربية بالتفكك حيث تعددت فيها المعاني، وكَثُرَ فيها الانتقال من غرض إلى غرض؛ وقد علّل لهذا التعدد بعض علماء الأدب الذين حاولوا أن يصلوا كل غرض بالغرض الذي سبقه والغرض الذي يلحقه، وحاولوا أن يذكروا بعض العوامل النفسية التي أدت إلى ذلك التعدد في المعاني، والانتقال من غرض إلى آخر عند هؤلاء الشعراء(7 )، بل تتوافر الوحدة في القصيدة العربية وتتماسك ألفاظها ومعانيها .

أما أكثر النقاد العرب، فقد كانت الوحدة تتمثل عندهم في البيت الواحد، فقد رأوا أن كلَّ بيت من أبيات القصيدة الواحدة يجب أن يكون مستقلا بمعناه عن البيت الآخر مثلما هو مستقل في موسيقاه وتفعيلاته، ومعنى ذلك أنهم ينشدون المتعة الفنية في كل بيت على حدة، ويرون تبعا لذلك أنه لا تتوافر تلك المتعة إلا بتوافر الاستقلال في مبنى البيت ومعناه

وقد ذهب بعض النقاد، إلى أن احتياج البيت إلى ما بعده ليتم معناه ؟ إلى أنه عيب من عيوب الشعر التي يجب على الشاعر الجيد أن يتجنبها، ومنهم، قدامة بن جعفر، الذي أعدّ هذا العيب من عيوب إتلاف الوزن والمعنى، وسماه "المبتور"، وسمّاه أبو الهلال العسكري بـ "التضمين" وهو أن يكون البيت الأول محتاجا إلى البيت الثاني ليتم معناه، كقول الشاعر ( قيس أبن الملوح )

**كأن القلب ليلة قيل يغدي بليلى العامرية أو يراح**
**قطاة عزها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح(8)**

فهو لم يتم المعنى في البيت الأول، وأتمه في البيت الثاني.

وإذا كان احتياج البيت إلى مابعده ليتم معناه، يُعدُّ عيبا من عيوب الشعر عند جماعة من النقاد، فهو ليس بالعيب عند جماعة أخرى؛ حيث إنهم يرون أنه شيئ طبيعي وهو دليل على التماسك بين أبيات القصيدة بعضها ببعض كالتماسك بين الجُمل والفقرات [9]

فالقصيدة العربية كالجسم الحي، يقومُ كل قسم منها مقام الآخر ويكمِّله ويشترك معه في اللفظ والمعنى، والوزن و القافية؛ ليحقق التماسك والوحدة في أبيات القصيدة الواحدة.

**خامسا ـ حركة التجديد في القصيدة العربية عند البيــاتي :**

يمكننا القول بأن الشاعر العربي الكبير عبد الوهاب البياتي خلال رحلة التجديد التي قام بها في بناء القصيدة العربية أدرك أن البحث عن الأشكال الجديدة قانون داخلي لابد منه في تطور الفن، ومن هنا انطلق البياتي وبدأ رحلته التجديدية فاتحا بابا جديدا للتجربة، ولذلك نجد أن التعبير عن المضمون في القصيدة يتم خلال الشكل وبذلك تتحول التجربة إلى عمل إبداعي.

ورغم ذلك لم ينفصل الشاعر عبد الوهاب البياتي بحركة التجديد التي قام بها عن تقاليد الشعر العربي والتقاليد الأدبية، والتي هي في المقام الأول: المعايير الجمالية التاريخية المصطلح عليها، تلك المعايير التي بقيت صامدة أمام الزمن راسخة حتى يومنا هذا .

كانت رحلة البياتي الشعرية ثورة تجديد في القصيدة العربية، أي أنها لا تمسُّ جوهرها فحسب، وإنما الجوهر والشكل على حد سواء، وذلك لا يعني أن البياتي قد انفصل عن تقاليد أدب شعبه[10]، فالشعر ليس غريبا انفصل عن البياتي منذ البداية، حيث إن زادهُ الشعري الأول كان ينبع من أغاني الفلاحين والحكايات الشعبية المنتشرة في الريف، و أكبر من أثر فيه من الشعراء العرب هم: طرفة بن العبد، وأبو نواس والمتنبي والشريف الرضي .

وقد أحسَّ الشاعر الكبير البياتي، ومَنْ تلاه مِنْ المجددين بحاجةٍ ماسةٍ إلى أوزان جديدة في الشعر، شأنهم في ذلك شان كبار شعراء الإنسانية الذين أبدعوا أنغاما جديدة، وأدخلوها إلى لغاتهم، واستعاروا بعضها من لغات أخرى.

وكان إحساسه بأن القالب الشعري القديم قالب محدود وضيق النطاق، دافعا إلى البحث عن شكل جديد في الشعر؛ بحيث يُعطي حرية أوسع للشاعر، ويكسر القيود الشكلية التي تعيق انطلاق الشاعر وتطور شعره، وفلسفته في الحياة المعاشة.(11)

أما الكلمات التي يستخدمها الشاعر عبدالوهاب البياتي في قصيدته، فهي ليست من ذلك النوع الرقيق، ولكنها كلمات دافئة وعنيفة، متوترة ومتحركة دائما، وهي ترتبط برباط وثيق بطبيعة المضمون، وبحياة الشاعر نفسها.

ونلاحظ من ذلك أن جرس الكلمات دائما يشعُّ بالمعنى، هذا ما يُكْسِبُ القصيدة جمالا طبيعيا رائعا.(12)

ونلاحظ من خلال التجربة الشعرية للبياتي أنه يستخدم (( الفعل الماضي)) غالباً فهو ينقلُ إلينا الإحساس باستمرار المضارع، وفي قصيدة أخرى يكثف الكلمات تكثيفا مركزا.

من قصيدة ((من أجل الحب)):

**من أجلِ أن نَضحكَ لِلشّمْس**
**على شواطئ البحار**
**ونجمعُ المَحَار**

**ونقطفُ النرجسَ مِنْ حدائق النَّهَار**
**مِنْ أجل أن تصمد في وجه رياح الليل والأمطار**
**بيوتنا الحالمة الأزهار**
**من أجل أن نكتب في جمال عيني أرضنا الأشعار ونقطف الثمار .(13)**

وقد بلغ البياتي بالقصيدة العربية مدى بعيدا حين كشف عن أساليب أكثر تركيزا في التعبير، فحلّتْا لاستعارة محلَّ التشبيه، وأصبحت الصورة المحسوسة مفضلة على التعميم الشعري – فاتسمت القصيدة – بسرعة في الحركة، ونفور من الأسلوب المبالغ في تأنقه، وإيثار الأسلوب الذي يُحتذى بمزيد من الدقة والملامح المميّزة للغة الحديث العامة .

## سادسا- البناء في قصيدة البياتي :

البناء في القصيدة أن يكون محكم الشكل ويتمتع بتوازن بين عناصر القصيدة من موسيقى داخلية وخارجية، وجرس موسيقي وصور بلاغية وبيانية، وتقرير، وذلك لأن القصيدة الجديدة لم تعد مجرد خواطر عفوية، بل أصبحت عملا فنيا يكمّل فيها تصوير خواطر متجانسة كما يكمّلُ التمثال.

ويمكن أن نحدد الإطار البنائي في قصيدة البياتي بالتعاطف مع قضايا الإنسان التي يتصور لها عملا في عمله الشعري، ومن ثم إحساس الشاعر وشُعوره بحاجات أبناء شعبه.

ثم الكلمات التي يختارها لإنجاز عمله الفني والتي تعتبر أداة العمل الشعري، فالبياتي يتعاون مع كلماته تعاونا عميقا، ومع الموسيقى الشعرية شكلية وداخلية، والمجاز والتشبيه والاستعارة .

ويتميز البناء في قصيدة البياتي باحتوائه على ذروة شعرية تستقطب أبيات القصيدة، فهي تزخر بالجزيئات التي تعبّر على موقف الشاعر مَنْ خلال تجربتهِ الإنسانية، كما يتميز البناء بأسلوب سهل لا أثر فيه للعبارة المطروقة والإيقاعات المنوعة.

ونلاحظ في قصيدة البياتي أيضا، أنها قصيدة تقدم تجربته الشعرية في أقلّ عددٍ ممكن من الصور والألفاظ، وهو بذلك يعي طبيعة العصر، ومِن هنا نجد أن قصيدته تقدم لقارئ هذا العصر تجربة شعرية متكاملة تعيش حالة مركزة مِنْ الكثافة الشعرية، غنية بالرؤى والدلالات المتنوعة، وهي أيضا تتمتع ببساطة نادرة لوّنت بناء القصيدة ، فأصبحت بعيدة من التعقيد الشكلي واللفظي.

لقد أشار المستشرق كارل بترجاك إلى ظاهرة جدا مهمة في بناء قصيدة البياتي، وهي القافية المنطلقة التي تمتد على الشكل الشعبي(الموّال) ، ويتضح ذلك جليا في قصيدة (أمثال)، فإن البياتي قد استخدم في هذه القصيدة إطار المثل الشعبي على نحوٍ جديد في الشعر الحديث:

**أوراقُ وردٍ طيّرتهَا الرّيح**
**الأسدُ الميّتُ خيرُ من غُرابٍ نَاعِبٍ يَصِيح**

**بَاعَ دَمُ المَسِيحْ**
**لِيشْتَرَي بهِ حِماراً مَلِكاً كَسِيْح**
**مشيتَ شهراً دُونَ أنْ تَعبرَ نَهراً أيها الصَّدِيق**
**أنتَ بعيني ميِّتُ غَرَيق**
**كانَ يُحاكِي الرَّعدَ والحريق**
**لأنَّه يَعرفَ مِنْ أينَ وكَيفَ يبدأ الطَّريق( 14)**

ونجده أيضا يستوحي فلسفة البناء الفني للموَّال الشَّعبي في قصيدة (موَّال بغدادي) :

**بغدادُ يا مدينَة النجوم**
**والشمسُ والأطفالُ والكرُوم**
**والخوفُ والهمُوم**
**متى أرى سماءُكِ الزَّرقاء؟**
**تنبضُ باللهفةِ والحنِين**
**متى أرى دجلة فِي الخريف؟**
**ملتهباً حَزين .( 15)**

- من خلال دراستنا لقصيدة عبد الوهاب البياتي عبر مرحلة التجديد التي قام بها في بناء القصيدة العربية حديثا عرف بأن البحث عن الأشكال الجديدة قانون داخلي لابد منه في تجديد الشعر الحديث يرى البياتي أن التعبير عن المضمون في القصيدة من خلال الشكل حتى تتحول التجربة إلى عمل إبداعي.
- الشاعر عبد الوهاب البياتي لم ينحاز إلى حركة التجديد التي قام بها في بناء القصيدة العربية حديثا ؛عن تقاليد الشعر العربي والتقاليد الأدبية وهي المعايير الجمالية والتاريخية والمصطلح عليها فبقت في شعره محافظ عليها .
- رحلة البياتي الشعرية ثورة تجديد في بناء القصيدة العربية فهي تمس الجوهر والشكل معا .
- يعتبر عبد الوهاب البياتي من الشعراء المجددين في أوزان الشعر الجديد مثله مثل كبار شعراء الإنسانية.
- استعمل عبد الوهاب البياتي في قصيدته كلمات دافئة و متوترة ومتحركة دائما وترتبط برباط وثيق بطبيعة المضمون وبحياة الشاعر نفسه فهو يستعمل الزمن الماضي والمضارع.
- تتميز قصائد البياتي بالكشف عن أساليب أكثر تركيزا في التعبير ،فحلت الاستعارة محل التشبيه فكانت الصورة المحسوسة مفضلة عن التعميم الشعري فاتسمت القصيدة بسرعة الحركة.
- توازن عناصر القصيدة عند البياتي من موسيقى داخلية وخارجية وصور بلاغية وبيانية لأن القصيدة أصبحت عملا فنيا فيها الخواطر متجانسة.

- يتميز بناء القصيدة بأسلوب يزخر بالجزيئات التي تعبر عن تجربة الشاعر الإنسانية
- قصيدة البياتي تقدم تجربته الشعرية في أقل عدد ممكن من الصور والألفاظ فهي تقدم لقارئ هذا العصر تجربة شعرية متكاملة ببساطة أسلوب نادرة لونت بناء القصيدة ،فأصبحت بعيدة عن التعقيد الشكلي واللفظي.

## الخاتمة

لقد توصل الباحث إلى بعض النتائج في هذا البحث يمكن تلخيصها في الآتي :

1 - ظهور نزعة إلى التحرر من القافية وجعل التفعيلة وحدة موسيقية في القصيدة.
2 - لم يعد البيت وحده في القصيدة بل أصبحت القصيدة مرتبطة ببعضها في شكل بناء محكم ومتماسك .
3 - إن الشعر الجيد هو ما سلمت فيه الفكرة من الغموض ووضحت معانيها.
4 - يجب على الشاعر الإكثار من الاطلاع وتنمية مهاراته وصقلها بشكل جيد، حتى يتمكن من مواكبة العصر، والتعبير عن قضاياه بعبارات ومعاني قوية، مع مراعاة تسلسل المعاني وارتباطها ببعضها .
5 - عند نظم القصيدة يجب أن يرتبط اللفظ بالمعنى، ويجب أن يتحقق فيها التماسك والوحدة في أبياتها .
6 - يعتبر البياتي من أوائل الشعراء الذين قاموا بحركة التجديد في القصيدة العربية
7 - أدرك البياتي أن البحث عن الأشكال الجديدة في بناء القصيدة العربية قانون داخلي لابد منه في تطور الفن الشعري

## الهوامش :

1 - عمر الدسوقي : في الأدب الحديث، منشورات دار الفكر العربي، الجزء الأول مطبعة الرسالة،ص299.
2 - كامل كيلاني روايات شكسبير ،الملك ليرن ط12،دار المعارف ،

ص 74
3 - المصدر نفسه: ص307.
4 - المصدر نفسه: ص 307.
5 - عبد الوهاب البياتي ديوان الأعمال الشعرية المجلد الأول ،ص 220
6 - عمر الدسوقي في الأدب الحديث منشورات دار الفكر العربي

ج1ن،مطبعة الرسالة،ص140.

7 - المصدر نفسه: ص141.

8 - ديوان قيس ابن الملوح ص 222
9 - د. بدوي طبانة : التيارات المعاصرة في النقد الأدبي، دار الثقافة، بيروت – لبنان (1405هـ - 1985م)ص423.
10- المصدر نفسه: ص 424.
11- المصدر نفسه: ص 424.
12- المصدر نفسه: ص 428 وما بعدها.
13- عبد الوهاب البياتي ديوان الأعمال الشعرية ،أشعار في المنفى ص269 .
14-عبد الوهاب البياتي ديوان الأعمال الشعرية النار والكلمات،ص 422
15- عبد الوهاب البياتي ديوان الأعمال الشعرية أشعار في المنفى ص 254